الأنثروبولوجيا كعلم
النشأة والتطور

الباحثة: اعتدال جادالله الكفيري*

ماجستير في الفلسفة – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة دمشق

الملخص

يحاول هذا البحث تقديم دراسة حول الأنثروبولوجيا بوصفها علماً أصبح يمتلك مقوماته الأساسية، من ناحية الموضوع والمنهج، فما هي الأنثروبولوجيا؟ ما هو منهجها؟ وما هو موضوعها؟ وما علاقتها بالفلسفة؟ ما علاقتها بالاستعمار؟ وهل استطاعت كعلم فعلاً دراسة الإنسان لخدمة الإنسان؟ فقد شغلت الأنثروبولوجيا الكثير من الفلاسفة منذ العصور القديمة إلى يومنا هذا، رغم اختلاف معانيها ودلالتها عبر عصور نشأتها وتطورها، وكانت مدار جدل بين الكثير من الفلاسفة من جهة كونها جزءً من العلوم الإنسانية أم العلوم الطبيعية، أم هي علم خاص مستقل بذاته عنهما؟

سنحاول في هذا البحث الإجابة على تلك الأسئلة المطروحة وغيرها من الأسئلة التي ستظهر في سياق البحث

كلمات مفتاحيّة: أنثروبولوجيا، الإثنوغرافيا، الإثنولوجيا، الإنسان.

Anthropology as a science Origins and development

Etedal jadallah Al-kafiri*

* Researcher, Master of Philosophy, Damascus University, Faculty of Arts and Humanities, Department of Philosophy

Abstract

This research attempts to present a study on anthropology as a science that has its basic components, in terms of subject and method, so what is anthropology? What is its method? And what is its topic? What is its relationship to philosophy? What does it have to do with colonialism? Was it, as a science, really able to study man to serve man? Anthropology has occupied many philosophers from ancient times to the present day, despite its different meanings and significance through the ages of its inception and development, and it was the subject of controversy among many philosophers as to whether it is part of the human sciences or the natural sciences, or is it a special science independent of them?

In this research, we will try to answer these questions and other questions that will appear in the course of the research.

Key words: Anthropology, Ethnography, Ethnology, The Human

المقدمة:

يشكل مفهوم الإنسان أحد أهم المرتكزات ـ إن لم يكن أهمها ـ الأساسية التي يستند إليها الخطاب الفلسفي، الذي يدعي الفهم الشامل له ولمختلف فعالياته في هذا الكون، فالإنسان كمفهوم أنثروبولوجي فرض نفسه كلغز يستدعي الحل في وسط الإشكاليات الفلسفية المتفرعة منذ القدم فكما أن فلاسفة العصور الماضية كانوا يوجهون أنظارهم نحو آفاق المستقبل كذلك فإن المفكرين المعاصرين يحاولون أن يضعوا تصوراتهم وتنبؤاتهم عن مصير الإنسان والحضارة البشرية، وهذا لتيقنهم بأنه المعنى الحقيقي للعالم والحياة التي يتشكل داخلها.

إن البحث في شؤون الإنسان والمجتمعات الإنسانية قديم قدم الإنسان، منذ وعى الإنسان وجوده وبدأ يسعى للتفاعل الإيجابي مع بيئته الطبيعية والاجتماعية، ولكن لا يمكن تحديد تاريخ نشأة واضح لهذا العلم إذا ما قارنا بينه وبين علم الاجتماع أو أي علم آخر، ومن هذا المنطلق نستطيع القول إن الأنثروبولوجيا علم حديث العهد.

1. مشكلة البحث

يطرح هذا البحث مشكلة أساسيّة في الفلسفة وفي كل العلوم الإنسانية، وهي هل استطاعت الأنثروبولوجيا أن تضع نفسها في السياق العلمي؟ وهل استطاعت فعلاً أن تعبّر عن موضوعها بشكل علمي وأن تطرح الحلول؟ وهل طورت أهدافها ومنهاجها أم بقيت على ما تأسست عليه إبان بدايات عصر التنوير؟ ومن ثم أين يظهر دور الاستعمار في نشوئها وما غايته؟

2. أهميّة البحث وأهدافه:

2.1.أهميّة البحث

تأتي أهميّة البحث من دراسة أحد أهم العلوم التي اتكأ عليها الاستعمار، ومن كونه أحد الدراسات القليلة في سورية التي تتناول مفهوم الأنثروبولوجيا وتعالجه تاريخياً وتتعقب

تطوره منذ اليونان إلى عصرنا الراهن. فما علاقة الأنثروبولوجيا بالاستعمار؟ وهل استطاع هذا العلم فعلاً دراسة الإنسان لخدمة الإنسان؟ سنحاول الإجابة على هذه الأسئلة وغيرها في سياق البحث.

2.2.أهداف البحث:

يهدف البحث إلى دراسة نشوء وتطور أحد أهم العلوم في العصور السابقة وعصرنا الحالي، وتحليل هذا التطور ومدى قدرة هذا العلم من امتلاك أدواته التي تنصب جميعها في دراسة هذا الكائن بوصفه إنساناً.

3. مصطلحات البحث وتعريفاته الإجرائيّة

- الإثنوغرافيا* Ethnography:

هي الإثنولوجيا الوصفية، أي ملاحظة وتسجيل المادة الثقافية من الميدان، وتعني...وصف أوجه النشاط الثقافي، ويعتقد دياس أن مصطلح إثنوغرافيا قد ظهر عام 1807م على يد كامبل ليعني وصف الشعوب، ويستخدم مصطلح الإثنوغرافيا في بعض الأحيان كبديل للإثنولوجيا.

- الإثنولوجيا* Ethnology:

هي علم الإنسان ككائن ثقافي... يعرفها كروبر بأنها علم الشعوب وثقافاتها، وتاريخ حياتها كجماعات، بصرف النظر عن درجة تقدمها.... ويعرفها هوبل بأنها ذلك القسم من الأنثروبولوجيا المختص بتحليل المادة الثقافية وتفسيرها تفسيراً منهجياً، ... وتعتبر الإثنولوجيا على خلاف الإثنوغرافيا علماً ذي نظرة مقارنة، وهي مطابقة في سماتها العريضة للأنثروبولوجيا الثقافية الأمريكية.

* أنظر هولتكرانس، إيكه، 1972م ـ قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور، ط1، ترجمة محمد الجوهري وحسن الشامي، دار المعارف ـ القاهرة، 15- 16

* أنظر المرجع السابق، ص18

- الأنثروبولوجيا Anthropology:

كمصطلح له معاني متعددة في تاريخ هذا العلم، وربما أهمها هو علم الإنسان، وسنأتي عليه تفصيلاً في القادم من هذا البحث.

4. الدراسات السابقة

هناك العديد من الدراسات السابقة التي تناولت الأنثروبولوجيا تاريخياً، لكن ما يميِّز دراستنا عن تلك الدراسات هو خصوصيَّتها؛ فهي تتناول وتتعقب أهم المفاصل التاريخية التي مرت فيها إلى أن وصلت إلى مرحلة العلم، حيث وجدنا أن بدايتها اتخذت الطابع الفلسفي، لكنها مع مرور العصور استقلت وأصبحت علماً بذاته، وهذا أرخى بثقله على قدرة الجيل الجديد من الأنثروبولوجيين من إعادة صياغة ونقد لتراث الآباء المؤسسين للأنثروبولوجيا، علماً أننا لم نتطرق بشكل واسع لعلاقتها بباقي العلوم، فهي استمدت واتكأت على جميع العلوم الإنسانية والطبيعية، مع التركيز على علاقة نشأتها بالحركة الاستعمارية التي بدأت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، ومن ثم نشوء الاستشراق الذي خدم بشكل كبير التوسع الاستعماري، مع الإشارة إلى أن هناك دراسات شكلت عاملاً رئيسيَّاً في الكثير من المفاصل المهمَّة التي ينطوي عليها بحثنا، ونذكر منها ما يلي:

- كتاب (قصة الحضارة) للدكتور حسين فهيم، يتحدث فيه عن مجمل تاريخ الأنثروبولوجيا.
- كذلك كتاب (مدخل إلى علم الإنسان) للدكتور عيسى الشماس يتحدث فيه عن تاريخ الأنثروبولوجيا وعلاقتها بالعلوم الأخرى.
- كذلك رسالة الماجستير التي أعدتها إيمان محمود عامر عبد الله في جامعة المنوفية في مصر وعنوانها (اسهامات مدرسة شيكاغو في الأنثروبولوجيا الحضرية)، تحدثت

فيها عن مدرسة شيكاغو التي ظهرت في أربعينيات القرن العشرين، ولكن للأسف لم نستطع الحصول على هذه الرسالة. هناك الكثير من الدراسات التي لا يسعنا هنا ذكرها، تقترب أو تبتعد عن بحثنا، لكن لا يوجد على حد علمنا بحث مستقل تناول نشوء الأنثروبولوجيا وعلاقتها بالاستعمار كما تطرقنا إليه.

5. منهج البحث

إنه لمن الصعب على الباحث أن يضع للبحث منهجاً كاملاً ومنظماً، وانطلاقاً من ذلك حاولنا في هذا البحث استخدام منهج التحليل تارةً، والمنهج التاريخي تارةً أخرى، هادفين بذلك تتبع المفهوم ورصد تطوراته التاريخية، ووضع المصطلحات والمفاهيم المرتبطة بالبحث والملتبسة تحت عدسة التحليل، ومحاولين إعادة قراءتها وإنتاجها وبناءها ضمن إطار جديد.

6. الإنسان كموضوع للأنثروبولوجيا:

إن مصطلح الأنثروبولوجيا ، هو مصطلح إنكليزي Anthropology، مشتقّ من الأصل اليوناني Ανθρωπολόγία المكون من مقطعين : ἄνθρωπος أنثروبوس، Anthropos، ومعناه (الإنسان)، ولوجوس λόγος، Logos، ومعناه (علم)، وبذلك يصبح معنى الأنثروبولوجيا من حيث اللفظ علم الإنسان أو علم دراسة الإنسان؛ أي العلم الذي يقوم بدراسة الإنسان في جميع تفاعلاته الإنسانية، وهنا سنجد أنه لا مناص لنا من إحالة هذا المصطلح إلى مجموعة من المقاربات التي نجد أنه لا بد منها، وسؤالنا الأساسي الذي ينبثق هنا هو: أليس أغلب العلوم الإنسانية هي علوم يكون الإنسان فيها هو الموضوع الرئيس، كعلم التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع؟ وهذا بحد ذاته ما يحيلنا إلى مشكلة أخرى هي ترجمة المصطلح والتي لا تشير بشكل واضح إلى طبيعة وموضوع هذا العلم، إلا أن أغلب المترجمين العرب والأنثروبولوجيين إن صح التعبير قد آثروا البقاء على الترجمة الحرفية

للمصطلح وذلك ربما لسهولة التعامل معه، أو ربما لعدم القدرة على إنتاج مصطلح يعطي المعنى الحقيقي المراد منه.

يُعرف لالاند في موسوعته الفلسفية الأنثروبولوجيا بأنها تأخذ عدة معاني عبر تاريخها: «معنى لاهوتي: فعل الكلام البشري على أمور إلهية. الإناسة الصحيحة والواقعية للحقائق التي لم يكن في الإمكان فهمها بكيفية أخرى. في الفلسفة المدرسية الجديدة الإناسة [تعني] درس المركب الإنساني في نطاق وحدته... بينما يرى كانط موضوع الإناسة بثلاث طرق: فهي بوصفها إناسة نظرية ... [تعني] معرفة الإنسان وملكاته بعامة؛ وبوصفها إناسة ذريعية، هي معرفة الإنسان المتطلع إلى ما يمكنه ضمان المهارة البشرية واطرادها؛ وبوصفها إناسة أخلاقية هي معرفة الإنسان التواق إلى ما يتعين عليه توليد الحكمة في الحياة، طبقاً لمبادئ ميتافيزيقا الأخلاق»[1].

وقد عرّفها إيكه هولتكرانس في قاموسه بأنها « تعني حرفياً علم الإنسان... وهي ذلك الفرع من دراسة الإنسان الذي ينظر إلى الإنسان من حيث علاقته بمنجزاته، مع ذلك فالأنثروبولوجيا تعني في معظم أجزاء أوربا: بيولوجيا الأجناس أو الأنثروبولوجيا الطبيعية... ويقول كروبر: الأنثروبولوجيا هي علم دراسة جماعات الناس وسلوكهم وإنتاجهم...وأصبحت منجزاتها...ميداناً للعلوم الإنسانية. وهذا على الرغم من أن الهدف والمنهج الأنثروبولوجي طبيعي حتى عند تطبيقه على المادة البشرية أو ما دون البشرية، ويُعرفها لينتون وهيرسكوفيتس بأنها دراسة الإنسان وأعماله.»[2]

لقد عبّر الوعي الإنساني الأول عن يقظته أمام ما يحيط به فهو وحده الذي يحاول أن يفهم و يعي و يفسر ما يحّيط به في هذا الكون، وضمن إطار مقولة (معرفة الذات أول مقدمة لتحقيقها)، نستطيع أن نقول بأن معظم الفلاسفة الذين جعلوا الإنسان محور

1. لالاند، أندريه، 2001م ـ موسوعة لالاند الفلسفية، مج1، ط2، تعريب خليل خليل، منشورات عويدات ـ بيروت، ص74

2. هولتكرانس، إيكه، 1972م ـ قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور، ص49-50

الدراسة قد أكدوا على هذا النوع من المعرفة والتي ليست فقط موضوعاً مرتبطاً بالتأمل وحب الاستطلاع فحسب، بل هو وبدرجة كبيرة الواجب الجوهري للإنسان، وانطلاقاً من ذلك تتناول الأنثروبولوجيا في دراستها للإنسان جميع أبعاده الثقافية والحياتية والاجتماعية والنفسية والبيولوجية، فتدرسه بوصفه جزءً من عالم الحيوان، والذي يتميز عن باقي الحيوانات بقدرته على الإبداع وخلق ثقافته، لذلك يمكن القول إن موضوع هذا العلم دراسة الإنسان ومجمل أفعاله، أي كل ما أنجزه على الصعيدين المادي والفكري، أي الدراسة الشاملة للإنسان، فالأنثروبولوجيا تجمع بين طيات موضوعها كل من العلوم البيولوجية والعلوم الاجتماعية، فتركز مشكلاتها على الإنسان بوصفه عضواً في عالم الحيوان من جهة، وعلى سلوك الإنسان كعضو في مجتمع، من جهة أخرى.

إن صياغة الأنثروبولوجيا في العالم الغربي، تعددت بتعدد الدول الأوروبية، وأمريكا جزء من ذلك التعدد، فالبلدان الناطقة باللغة الإنكليزية، تطلق على علم الأنثروبولوجيا : (علم الإنسان وأعماله) بينما يطلق المصطلح ذاته في البلدان الأوروبية غير الناطقة بالإنكليزية، على (دراسة الخصائص الجسمية للإنسان)، ومرد هذا الاختلاف إلى طبيعة علم الأنثروبولوجيا، أي يعني الأنثروبولوجيا الفيزيقية، وينظر إلى علمي الآثار واللغويات كفرعين منفصلين، بينما يستخدم الأمريكيون مصطلح (الإثنولوجيا أو الإثنوغرافيا) لوصف (الإثنوغرافيا الثقافية) وهي علم دراسة الثقافات البشرية البدائية والمعاصرة، والتي يطلق عليها البريطانيون (الأنثروبولوجيا لاجتماعية)، بينما علماء فرنسا يطلقون على هذا المصطلح، دراسة الإنسان من الناحية الطبيعية، أي العضوية[1]

إذاً تدرس الأنثروبولوجيا الإنسان كما باقي العلوم الإنسانية إلا أن الأنثروبولوجيا تدرسه بوصفه جزءً من الطبيعة والمجتمع في آن واحد، على خلاف باقي العلوم التي تدرسه إما في ماضيه أو سلوكه أو علاقاته، إلخ، فالأنثروبولوجي يهتم بالتصورات الشكلية الأولى للإنسان وسلوكه بنفس درجة اهتمامه بأعماله المعاصرة، إذ يدرس كلاً

1. أنظر الشماس، عيسى، 2004م ـ مدخل إلى علم الإنسان، منشورات اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق.، ص14-15 بتصرف

من التطور التراكمي للبشرية وتطور الحضارات منذ أقدم الأشكال التي وصلتنا عنها أي سجلات أو بقايا، وهو بذلك قد يجمع الكثير من العلوم ويستعين بها.

7. الأنثروبولوجيا عند قدماء اليونان:

إن الأنثروبولوجي الأول عند الباحثين هو المؤرخ اليوناني هيرودوت Herodotus لكونه أول من أرّخ عن الشعوب وعاداتها وتقاليدها، فإليه يعزى ظهور التاريخ في القرن الخامس قبل الميلاد، والذي ظهر من خلال سرده التاريخي للحروب الفارسية، وقد وصف أحدهم رسالة هيرودوت (تاريخ هيرودوت) قائلاً: «هي معرفة حدود الحالة الإنسانية»[1]، وقد تخللت رسالته العديد من التوصيفات الدقيقة لعادات الشعوب، إضافة إلى مقارناته بينها، مثلاً بين الإغريق والليبيين، وبين عادات المصريين وحياتهم وباقي الشعوب، ولهذا شكلت توصيفاته ومنهجه القاعدة الأساسية لعلم الشعوب أو الأثنوغرافيا، والذي يشكل أيضاً قاعدة أساسية للأنثروبولوجيا.

وفي مجال آخر قد نجد أن آراء أرسطو في كتابه (أجزاء الحيوان)، والذي يصف فيه مقاربات بيولوجية تطورية للحيوان، كتفريق مهم عن تطور الإنسان، فهو يفرق بين الأجناس المرتبطة بجنس واحد وغير المرتبطة بجنس مشترك، فيقول: « فأما ما لم يكن له جنس مشترك فهو بيّنٌ أنه ينبغي أن يكون القول في كل واحدٍ مفرداً بذاته، مثل الإنسان»[2]، الأمر الذي يجعل من امتلاك الإنسان القدرة على تشكيل الدولة ـ المدينة، وإنشاء الحكومات، وهذا ما نجده في كتابه (السياسة)، وهنا لا بد لنا أن نؤكد على حالة عدم التوافق الظاهري بين الفلسفة وبين الأنثروبولوجيا من حيث التوجه، فالفلسفة كانت

1. روبرتس، جينيفر تي، 2014م ــ هيرودوت مقدمة قصيرة جداً، ترجمة خالد علي، مؤسسة هنداوي ــ المملكة المتحدة ، ص28

2 أرسطو، 1977م ـ أجزاء الحيوان، ترجمة يوحنا بن البطريق، تحقيق عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات ـ الكويت، ، ص59

تنطلق مما ينبغي أن يكون، بينما منطلق الأنثروبولوجيا هو الواقع، أي ما هو كائن وقائم، علماً أنها في ذلك العصر كانت أكثر قرباً إلى ما نسميه في يومنا علم النفس .

8. الأنثروبولوجيا في العصر الوسيط وعصر النهضة:

عندما نتحدث عن العصر الوسيط فيما يتعلق بالفكر، فلن نجد ما يذكر من إسهامات عند الغرب، فقد كان الفكر الغربي في أردأ حالاته وفي تدني كبير نحو الارتباط بالحالة الغريزية بعيداً عن أي إنتاج فكري وعقلي، ولكن سنجد في المقابل عند العرب والمسلمين اسهامات ليست بالقليلة، فحتى نهاية القرن الرابع عشر قدم العلماء والفلاسفة العرب والمسلمين الكثير من الإبداعات في العلوم والفن والفلسفة، كياقوت الحموي والبيروني، وابن بطوطة، وأبو الهبة بركات، وابن الهيثم والخوارزمي وغيرهم الكثير، وسنذكر هنا ما قدمه السوسيولوجي ابن خلدون نظراً لأهميته البالغة في الدراسات الأنثروبولوجية، وخصوصاً في مقدمته الشهيرة.

يعد ابن خلدون من أوائل العلماء الذين شعروا بضرورة التفكير والتأمل حول ظاهرة المعرفة في المجتمع، وقد انطلق من فرضية :أن العلاقة بين المعرفة العلمية والمدنية علاقة موضوعية، وبّين أن العلوم تكثر حيث يكثر العمران، وتعظم الحضارة، ومرد ذلك أن الصناعات تزداد في المجتمعات؛ لتشبع حاجات أفرادها، فإن زادت عن حاجاتهم انصرف الناس لتعلم العلوم والحرف والصنائع، فهو يقول في مقدمته: «فإذا تمدنت المدينة وتزايدت فيها الأعمال ووفت بالضروري وزادت عليه، صرف الزائد حينئذ إلى الكمالات من المعاش، ثم إن الصنائع والعلوم إنما هي للإنسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات، والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية، فهو مقدم لضرورته على العلوم والصنائع، وهي متأخرة عن الضروري، وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة

الصنائع»[1]. كأنه يريد هنا أن يقول إن وعي الناس مرتبط بوجودهم الاجتماعي، إضافة لتناوله في مقدمته أيضاً، مسألة نشوء وقيام الدول وتطورها وأحوالها، وبلور نظرية (أطوار العمران) بين البداوة والحضارة على أساس المماثلة بين حياة الجماعة البشرية وحياة الكائن الحي، فهو القائل: «اعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة وحالات متجددة، ويكتسب القائمون بها في كل طور خُلقاً من أحوال ذلك الطور لا يكون مثله في الطور الآخر، وحالات الدولة لا تعدو في الغالب خمسة أطوار: الطور الأول: طور الظفر بالبغية...الطور الثاني: طور الاستبداد...الطور الثالث: طور الفراغ والدعة... الطور الرابع: طور القنوع والمسالمة... الطور الخامس: طور الإسراف والتبذير... وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم، ويستولي عليها المرض المزمن...ولا يكون لها معه برءٌ إلى أن تنقرض»[2]. فعمر الدول عند ابن خلدون كعمر الكائن البشري، تبدأ بالولادة وتنمو إلى الشباب والنضج والكمال، ثم تكبر وتهرم وتتلاشى إلى الزوال، وهذا بحد ذاته يعد إسهاماً كبيراً في نشوء علم الأنثروبولوجيا وإرساءً لقواعد فهم نشوء الحضارات واندثارها، لقد وضع ابن خلدون منهجاً واضحاً لدراسة المجتمعات البشرية قبل الكثير من العلماء الغربيين، «لذلك فإن بعض الكتاب العرب يرون في ابن خلدون هو المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع بينما يجد البعض الآخر وخاصة الأنثروبولوجيين البريطانيين في مقدمة ابن خلدون بعض موضوعات ومناهج الأنثروبولوجيا الاجتماعية»[3]، ونحن لا نغالي إن قلنا أنه أول الأنثروبولوجيين العرب الذي قدم شروحات مستفيضة عن أحوال الشعوب وثقافاتها.

1. ابن خلدون، 1978م ــ من مقدمة ابن خلدون، تحقيق سهيل عثمان ومحمد درويش، منشورات وزارة الثقافة ــ دمشق، ص352
2. ابن خلدون، 2004م ــ مقدمة ابن خلدون، ج1، ط1، تحقيق عبدالله الدرويش، دار يعرب ــ دمشق، ص343+344
3. فهيم، حسين، 1986م ــ قصة الأنثروبولوجيا، ضمن سلسلة كتب عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون ــ الكويت، ص52

أما إذا دخلنا إلى عصر النهضة، أي نهاية القرن الرابع عشر، حيث بدأت الإرهاصات الأولى لنشوء علم الأنثروبولوجيا، فالأوروبيين قد بدأوا بدراسة النتاج اليوناني والعربي فيما يتعلق بجميع العلوم، مما بلور لديهم منهجاً علمياً تجريبياً، درسوا من خلاله الظواهر الطبيعية والإنسانية، وهذا سيتضح أكثر في القرن السابع عشر عصر التنوير، وقد عبر عن ذلك حسين فهيم في كتابه (قصة الأنثروبولوجيا) قائلاً: « ومن الظواهر الأخرى التي تميز بها عصر النهضة، والتي كان لها تأثير على توليد نظريات جديدة عن العالم والإنسان، وهي أن المفكّرين قد اتفقوا جميعهم، بالرغم من تباين وجهات نظرهم، على مناهضة العصور الوسطى اللاهوتية، التي أعاقت فضول العقل الإنساني إلى معرفة أصول الأشياء ومصادرها، وتكوين الطبيعة وقوانينها، وصفات الإنسان الجسدية والعقلية والأخلاقية»[1]، لقد حصرت الكنيسة كل المعرفة لها فمنها ومن خلالها فقط يتم إنتاج العلم، ولا يخفى على أحد دور الكنيسة في موت والتنكيل بالكثير من العلماء والفلاسفة، أمثال غاليليو وكبلر وقبلهم كوبرنيكوس الذي اكتشف أن الأرض تدور حول الشمس، على عكس ما كان شائعاً ومؤيداً من الكنيسة، حيث كانت الأرض هي الثابتة والشمس تدور حولها، وبذلك أخرج من يد الكنيسة سلطة المعرفة.

وهذا بدوره أدى إلى ظهور المنهج التجريبي والرياضي على يد فرنسيس بيكون ورينه ديكارت وجون لوك وإسحاق نيوتن وغيرهم، فتبلورت معهم مفاهيم جديدة حول الإنسان الذي غدا جزءً من الطبيعة، وتتم دراسته بوصفه ظاهرة طبيعية لها قوانينها التي تحدد تطوره ونموه، وهنا نستطيع القول إن هذه الإنجازات قد شكلت المقدمات والمنطلقات الضرورية والنظرية لنشوء الأنثروبولوجيا بوصفها علماً.

هذا وقد كان للرحالة الأوروبيين دوراً مهماً في تنشيط الخيال والتفكير الأوروبي حول شعوب ومناطق وحضارات لم تكن يوماً في حسبانهم، وهنا نذكر رحلات المستكشفين

1. المرجع السابق، ص68

أمثال كريستوف كولومبوس(1451–1506) وفرناندو ماجلان (1480–1521) ومكتشف أمريكا أمريكو فيسبوتشي (1454–1512) الذي أعطى انطباعاً سيئاً عن السكان الأصليين بوصفهم بدائيين وهمج ويمثلون الشر والإلحاد وأكلة لحوم البشر.

لقد شكلت الأوصاف والانطباعات التي ساقها الرحالة عن الهنود سكان أمريكا الأصليين أزمة فكرية في أوروبا، فقد كان الفكر السائد مرتبط بالكتاب المقدس ارتباطاً وثيقاً، وهذا الأمر شكل معضلة فيما بعد لاهوتيّة وفلسفيّة وقيميّة، فالكتاب المقدس لم يذكر شيئاً عن تلك الأرض المكتشفة ولا عن سكانها، ومن ثم كيف يمكن التعامل معهم وقد جاءت إليهم أوصافهم بأنهم بشر لكنهم لا يمارسون ما يعتقده الأوروبيون جزءً من الحالة الإنسانية، «لقد افترض الفلاسفة خلال العصور الوسطى أن الله خلق العالم مرة واحدة للأبد ومنح سكانه طبائعهم الخاصة التي احتفظوا بها من يومها...[فـ] هل الهنود يمثلون مرحلة مبكرة من تطور البشرية. إن هذا تباعاً يؤدي إلى تصورات غير ناضجة عن تقدم البشرية وتطورها، حيث يعلن عن خروج جذري على النظرة الكلية للعالم خلال العصور الوسطى»[1] وهذا الخروج والبحث عن شروط التطور والتقدم الذي لا يمكن أن يحدث خارج نطاق النتاج والنشاط الذي تقوم به البشرية، وهذا بحد ذاته شكل الفكرة الأكثر ثباتاً في تاريخ الأنثروبولوجيا وهي «أن الناس يشكلون مصائرهم الخاصة»[2]

9. الأنثروبولوجيا في عصر التنوير:

لقد استطاع المفكر السياسي صاحب كتاب (روح الشرائع) دي مونتسكيو (1689–1755) أن يقوم بالربط الوظيفي بين القوانين والشرائع وبين البيئة والعادات السائدة في المجتمعات، وكان لذلك أثرٌ كبير في الأوساط الأنثروبولوجية، وهذا أدى إلى توسيع دائرة

1. إريكسن، توماس، 2014م ـ تاريخ الأنثروبولوجيا، ترجمة عبده الريس، المركز القومي للترجمة ـ القاهرة، ص21

2. المرجع السابق نفسه

الترابطات وخاصة عند الأنثروبولوجيين الإنجليز الذي ذهبوا في اتجاه ربط النظم السياسية بالحالة العامة للحضارات ومدى تأثير الحالة المناخية على الحالة الثقافية.

وفي هذا السياق لا يمكن أن نتجاهل كتابات جان جاك روسو (1712– 1778) في القرن الثامن عشر، فقد اتخذت منحاً أكثر نضوجاً، فكل مؤرخي علم الأنثروبولوجيا، نظروا إلى دراساته الاثنوجرافية للشعوب المكتشفة (المجتمعات البدائية) مقارنة مع المجتمعات الأوروبية، بوصفها دراسات تتميز بالتجرد والموضوعية، من خلال ما أظهره روسو من نقد لبعض القيم والجوانب الحياتية والثقافية في المجتمع الفرنسي، في مقابل اعجابه ببعض الجوانب الحياتية في المجتمعات الأخرى، فهو يقول في كتابه (في العقد الاجتماعي) تأسيساً لمفهوم الحرية: «إن حق الاستعباد، من أي زاوية نظرنا إلى الأمور، حق باطل ليس فحسب لأنه غير شرعي وإنما لأنه محال ولا يعني شيئاً. سواء أكان من إنسان لإنسان أم من فرد لشعب»[1]، ولذلك يعد روسو أحد أهم الفلاسفة الذين أعطوا المقدمات الأولى للفكر الأنثروبولوجي، دون أن ننسى كتابه (إميل) الذي حاول من خلاله رد التربية إلى الطبيعة، وهذا ربما مرده إلى تأثره بالحالة الطبيعية التي كانت تعيشها المجتمعات البدائية مقارنة بالمجتمعات الأوروبية، فبالنسبة إليه «كان البدائيون في الأساس على قدر من الأهمية باعتبارهم مقابلين لعصره هو، لقد كانوا رموزاً للإنسان العقلاني الذي سيولد من جديد في المجتمع المثالي الذي يحمله المستقبل. وهكذا كان الإنسان إما حراً وعقلانياً أو غير حر وفاسد»[2] .

إن الإسهامات التي ظهرت في عصر التنوير تمتلك قيمتها بوصفها الدافع الأساسي الذي أدى إلى نشوء ذلك العلم، ولكن ذلك لم يكن واضحاً بشكل كبير فقد بقيت المعرفة غير مستقرة، فهل هي ذاتية أم موضوعية؟ وهذا بذاته كان مسار جدل فلسفي كبير في

1. روسو، جان جاك، د. ت ـ في العقد الاجتماعي، ترجمة ذوقان قرقوط، دار القلم ـ بيروت، ص45

2 إريكسن، توماس، 2014م ـ تاريخ الأنثروبولوجيا، ص31

عصر التنوير، إن لم نقل أنه حجر الزاوية في تحديد نمط التفكير العام، فالمعرفة والحقيقة تتأسس عند الفيلسوف الألماني كانط «من خلال ارتباط الأسئلة الكانطية الثلاث (ماذا يمكنني أن أعرف؟ ماذا يمكنني أن أعمل؟ ماذا يمكنني أن آمل؟) بالسؤال الذي يجمع هذه الأسئلة، وهو: ما الإنسان؟ ...وهذه المشكلات الثلاث ستحدد لنا كيف صاغ كانط مفهوم الحقيقة بين ما يعرفه العقل، وبين ما لا يعرفه»[1]، وهذا يعني أن الإنسان هو المآل الأخير لكل شيء، علاوة على ذلك فإن كانط لم « يكن يثق بعلم النفس، وعلى اعتبار أنه [أي كانط] أمبريقي*، فإن دراسة الإنسان لا بد أن تتم من خلال الأنثروبولوجيا»[2]، لقد كان المنطلق المعرفي عند كانط هو الفرد والذات بوصفها النقطة الثابتة التي يدور حولها العالم من جهة، وهي أيضاً تتشكل وفق عملية معرفية من جهة أخرى، بينما نجد في مقلب آخر عند هيجل (1770–1831) كيف تشكلت المعرفة والحقيقة في قالب جماعي حيث إن الذات أو الفرد لا يعيش إلا بحالة تشاركية تواصلية مع الآخرين، وليس هو إلا نتاج ذلك المجتمع.

وبذلك فقد تبلور الفكر الألماني حول فكرة التفوق الجماعي للأمة الألمانية متأثراً في ذلك بالنزعة القومية، التي برزت في منتصف القرن الثامن عشر، وهذا أدى لفكرة أن أن الشعب الألماني هو الشعب الأنقى والأمثل، وهذا ما سنجد نتائجه ماثلة بشكل قوي في النصف الأول من القرن العشرين، باندلاع الحرب العالمية الثانية.

1 علي، حسان، 2021م ـــ الميتافيزيقا بين كانط وهيدغر، رسالة دكتوراه، جامعة تشرين ـــ اللاذقية، ص61

* أمبريقي empiric، وهي تعني تجريبي، ولكن كلمة أمبريق كما يستخدمها كانط تعني أعم من التجريب فهي تشمل كل ما هو معطى عن طريق الحساسية، أما التجربة فهي تقتصر على ما هو صادق موضوعياً. أنظر تقديم الترجمة العربية لكتاب كانط (نقد العقل المحض) ترجمة موسى وهبي، ص11 ، بينما يترجمها غانم هنا في ترجمته لذات الكتاب بالتجريبي.

2. KANT, IMMANUEL, 1974 -Anthropology from a pragmatic point of view, Trans: MARY J. GREGOR, Martinus Nijhoff, The Hague- Netherlands, translators introduction, xv

إلا أن هذا الاتجاه في الدراسات الأنثروبولوجية، قد واجه الكثير من الانتقادات في بداية القرن العشرين، حيث برزت فكرة أنّه لا «يجوز أن تتّخذ اللغة كأساس أو دليل على الانتماء إلى أصل سلالي واحد، وأن العلاقة بين الجنس البشري واللغة، لا يجوز أن تكون أساساً لتقسيم الشعوب الإنسانية إلى سلالات متمايزة»[1]. وقد استطاع الفكر الأنثروبولوجي القائم على الدراسة الميدانية المقارنة لمجتمعات الشعوب الأخرى، وعلى المشاهدة الواقعية، من دحضه ونقضه وتبيان تهافته.

10. الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر:

ربما نستطيع القول أن من أكثر محددات القرن التاسع عشر التي أثرت في الفكر الأنثروبولوجي هي دخول القرن ومازالت تأثيرات الثورة الفرنسية (1789– 1799) الفكرية والسياسية في أوجها، وكذلك الثورة الصناعية التي بدأت في نهاية القرن الثامن عشر، وما صحب ذلك من ثورة فكرية وعلمية وثقافية، وهذا انعكس على الشارع الأوروبي ازدهاراً اقتصادياً، فالثورة الصناعية نقلت أوروبا إلى عصر الآلة والتصنيع، وهذا بدوره أدى إلى ازدهار تجاري فتح الباب واسعاً لظهور الرأسمالية، ومن ثم اتسعت الحاجة إلى التوسع خارج الحدود، لاستقدام الموارد اللازمة للصناعة والتجارة وفتح أسواق جديدة لتصريف المنتجات، مما أعطى حركة الاستعمار دفعة قوية، لدرجة أن الأوربيين قد اعتقدوا «وهم يسيرون في زحفهم المظفر عبر القارات بأن الفضل في نجاحهم يرجع إلى تفوق أمتهم ودينهم وثقافتهم»[2].

علاوة على ذلك، أدت الحملات الاستعمارية إلى نضوج مفهوم الاستشراق، الذي كان متمحوراً حول دراسة الأديان، حيث امتلك مع ذلك المضمون مجموعة من الترابطات السياسية والثقافية، وبمعنى آخر فقد أعاد الاستعمار تشكيل مفهوم الاستشراق، بحيث أصبح أداة أكثر نضجاً بيده لخدمة مصالحه التوسعية، وهنا يشدد إدوارد سعيد على أن

1. فهيم، حسين، 1986م ـ قصة الأنثروبولوجيا، ص79
2. المرجع السابق، ص91

«الاقتصار على القول بأن الاستشراق تبرير منطقي للحكم الاستعماري معناه أن نتجاهل مدى تبرير الاستشراق للحكم الاستعماري وانطلاقه منذ البداية لا بعد أن حدث»[1]، لقد كان سعيد مدركاً لأهمية الاستشراق بالنسبة إلى الاستعمار، فقد «شعر بالرعب عندما أدرك أن التأثير الأكبر للاستشراق في العديد من علماء الأنثروبولوجيا كان تشجيع الاهتمام بشعرية الاستعمار أكثر من الاهتمام بسياسة الأنثروبولوجيا»[2]

ومن هنا تتأسس اللحظة الوجودية بين الاستعمار وبين الأنثروبولوجيا، حيث إننا نجد أن كلاً من أفكار الإمبريالية الاستعمارية المعاصرة، وأفكار الأنثروبولوجيا الحديثة متوافقتان في إطار الزمان من خلال كونهما تنتميان إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أما من جهة الإيديولوجيا، فمن خلال النزعة المركزية للدول الأوروبية التي تعتبر أن الشعوب الإفريقية والآسيوية هي شعوب متخلفة، وهذا انعكس بشكل واضح في أدبيات الأنثروبولوجيين بوصفها مجتمعات بدائية على عكس المجتمعات الأوروبية التي تبدو أكثر تحضراً، ويرى جيرار لكلرك في كتابه (الأنثروبولوجيا والاستعمار) نقلاً عن ريفيه «لا استعمار جيد دون إثنولوجيا محكمة... و لا يجوز أن يتم الاستعمار بالتجريب حين تساعده أضواء الملاحظة العلمية سلفاً على إتمامه وبمعدل نجاح كبير»[3].

إذن، يمكن لنا القول أن الاستشراق ولد كحاجة استعمارية تلبي طموحات المستعمر في معرفة ماذا يستعمر وماهي أفضل الطرق لبسط سيطرته على الشعوب، لذلك وكنتيجة لما سبق، فإن الاستشراق هو معرفة أنثروبولوجية للشرق تمهيداً لأفضل طرق

1. سعيد، إدوارد، 2006م ـ الاستشراق، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع ـ القاهرة، ص96

2. ديركس، نيكوس، 2022م ـ إدوارد سعيد والأنثروبولوجيا، ترجمة وسيم سيفو، مجلة جسور ـ دمشق، العدد 27، ص173

3. لكلرك ،جيرار ، 1990م ـالأنثروبولوجيا والاستعمار، ترجمة جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدارسات ـ بيروت، ص107

السيطرة عليه، وواقع الشرق المتردي يثبت ذلك، حيث إن الاستعمار الثقافي أكثر سيطرة من الاستعمار العسكري.

وفي ظل هيمنة الحالة الاستعمارية وما أنتجته من عنصرية تحولت إلى أيديولوجيا منظمة منذ عشرينيات القرن التاسع عشر، ظهر الأنثروبولوجي كباحث عالمي يعتمد في علمه على جمع بيانات دقيقة وواضحة عن الشعوب في كل العالم، وليس غريباً أن يأخذ كتاب (أصل الأنواع) لشارلز داروين (1809– 1881) هذا الصخب الفكري فقد جمع معلوماته من خلال الإبحار حول العالم في مدة لا تقل عن خمس سنوات، وعقب ذلك أشهر مؤيدي داروين وهو عالم الاجتماع هربرت سبنسر (1820–1903) الذي أسس الداروينية الاجتماعية، وبذلك تتأسس الأنثروبولوجيا بوصفها فرعاً أكاديمياً، يختلف عن علم الاجتماع، فعلم الاجتماع كان نتاج التغيرات الحاصلة ضمن العلاقات الاجتماعية التي أفرزتها الثورة الصناعية، فهجرة الريف إلى المدن وبكثرة، أرخى ثقله على الحالة الاجتماعية في المدن وكذلك في الريف، الأمر الذي أدى إلى نشوء طبقات جديدة في المجتمع الأوروبي لا بد من معالجة مشاكلها، بينما ظهرت الأنثروبولوجيا من رحم الحالة الاستعمارية، بمعنى أنها التطور الفكري للاستعمار الموجه نحو المجتمعات المستهدفة.

إذن، في ظل هذه التحولات بدأنا نلتمس بدايات نشوء علم مستقل بذاته، بعد منتصف القرن التاسع عشر، حيث نجد أنه تم تعيين أول رئيس لقسم الأنثروبولوجيا بجامعة كولومبيا عام 1880 وهو ألماني المولد وأمريكي الجنسية فرانز بواس(1858–1942)، فيما عُين أول أستاذ للأنثروبولوجيا في جامعة أوكسفورد عام 1884 وهو الإنكليزي إدوارد برنت تايلور (1832–1917) وأهم أبحاثه كتابه (أبحاث في التاريخ القديم للجنس البشري) عام 1965م، وكتابه (الحضارة البدائية) عام 1871م، وفي عام 1887م عُين الطبيب الأمريكي دانيال غاريسون برينتون (1837–1899) أول أستاذ للأنثروبولوجيا في جامعة بنسلفانيا، ونذكر أيضاً ممن لمع نجمهم في فضاء الأنثروبولوجيا خلال القرن التاسع عشر ، أمثال الإنكليزي جون فيرغوسن ماكلينان

(1827–1881)، ألفرد كورت هيدن(1855–1940) والذي عُين أستاذاً بجامعة كمبردج عام 1900م، وكذلك ألفرد ريدكليف براون(1881– 1955) ومن أهم مؤلفاته كتابه (المنهج في الأنثروبولوجيا) الذي نُشر عام 1958م، والقائمة تطول ممن قدموا أعمالاً بحثية وميدانية أدت إلى إثراء مسار الأنثروبولوجيا الذي سنلتمس سماته في القرن العشرين، فما يميز هذه المرحلة من تطور الأنثروبولوجيا هو تعدد الدراسات والأبحاث المستفيضة عن الشعوب، إضافة إلى صدور العديد من الجمعيات العلمية وما صحبها من مجلات تختص في مجال الأنثروبولوجيا، وهذا أدى بطبيعة الحال إلى تقبُل للأنثروبولوجيا كاختصاص أكاديمي يُعنى بتاريخية نشوء المجتمعات، ويهتم من ضمن ما يهتم بالتراث والفولكلور الشعبي للمجتمعات.

لا بد لنا من توضيح مسألة خاصة بالأنثروبولوجيا وهي أنها تكاد تكون العلم الوحيد الذي نشأ من خلال أبحاث مفكرين وعلماء لهم اختصاصات مختلفة إلى درجة التباين، وهذا الأمر ربما كان شيئاً إيجابياً بالنسبة إلى هذا التخصص الجديد، حيث مده بمزيج من الأطر الفكرية والدراسات الشاملة لكل ما هو متعلق بالإنسان، ولذلك فالباحث الأنثروبولوجي سيجد نفسه أمام هذا الكم الهائل من التقييمات والدراسات والكتابات التي ستنصب جميعها في نهر الأنثروبولوجيا، وربما سنجد أن أهم «النتائج الإيجابية للكتابات الأنثروبولوجية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر هو بلورة مفهوم الثقافة وطرحه كموضوع رئيس للإثنولوجيا»[1].

ومع دخول الأنثروبولوجيا مجال القرن العشرين، بأحداثه وتغيراته العلمية والاجتماعية والسياسية والعسكرية، فلا يستطيع أي باحث أن يتجاهل أثر الحربين العالميتين على شعوب العالم، ففي خضم الحرب العالمية الثانية «دعي الأنثروبولوجيين لجعل معلوماتهم الخاصة نافعة لقضية الولايات المتحدة والحلفاء... ولما انتهت الحرب

1. فهيم، حسين، 1986م ـ قصة الأنثروبولوجيا، ص107

دعي الأنثروبولوجيين(حلالين للعُقد)»[1] ، ولكن رغم ذلك تعد بدايات القرن العشرين وحتى منتصفه فترة ازدهار لعلم الأنثروبولوجيا حيث أنها بدت أكثر نضجاً، ولم تتأثر كثيراً كدراسات بمجريات الحرب حيث طرأت عليها تغيرات جوهرية وجذرية في موضوعها ومنهج دراستها وذلك بعد عام 1945م، فنجدها قد ابتعدت عن الطرق النظرية وأخذت بالمنهج التطبيقي باعتباره أكثر علميةً، إضافة إلى تحديد علاقة التأثير والتأثّر بينها وبين منظومة العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى، فقد أضحت النظرة الشاملة أحد أهم مميزات المنهج الأنثروبولوجي، الذي عندما يريد دراسة أي موضوع، مهما كانت طبيعته وأهدافه، فإنه لا بد من دراسته دراسة كلية متكاملة، تحيط بمجمل أبعاده المختلفة، مع الأخذ بالحسبان تلك التفاعلات المتبادلة بين أبعاد الموضوع والجوانب الحياتية الأخرى في المجتمع، وهذا كله كان بفضل تلاميذ المؤسسين الأوائل، الذين وضعوا بصمتهم، فمثلاً في بريطانيا تم إرساء قواعد متينة لعلم الأنثروبولوجيا استمرت إلى فترة الأربعينيات بزعامة طلاب ريدكليف براون.

إلا أننا نستطيع القول إن أنثروبولوجيا القرن العشرين اختلفت اختلافاً جذرياً عن أنثروبولوجيا القرن التاسع عشر، التي لكثرة الدراسات الميدانية أصبحت أكثر تطورية في فترة وجيزة، بينما وعلى عكس ذلك، فإنها في القرن العشرين تأثرت ولو بشكل نسبي بآثار الحرب، وما خلفته من أزمة على الصعيدين الفكري والإنساني، أدت إلى إعادة طرح السؤال الكانطي ولكن بشكل آخر، فبدلاً من السؤال عن ما هو الإنسان؟ عمد الفيلسوف الألماني مارتن هيدغر (1889–1976) إلى تحويل السؤال المعرفي إلى سؤال وجودي متعلق بوجود الإنسان وهو: من هو الإنسان؟[2]، علاوة عن ظهور النزعة التشاؤمية حول مصير الإنسان، والتي انتشرت في فرنسا عل يد الفيلسوف الوجودي جان بول سارتر

1. بيلتو، بيرتي ج، 2010م ـ دراسة الأنثروبولوجيا، ترجمة كاظم سعد الدين، ضمن سلسلة كتب عالم الحكمة، بيت الحكمة العراقي ـ بغداد، ص51+52

2. علي، حسان، 2021م ـ الميتافيزيقا بين كانط وهيدغر، ص168 بتصرف

(1905–1980) فيما ظهر تيار مناهض للتيار الوجودي في أمريكا على يد الفيلسوف جون ديوي (1859–1952) الذي دعى في كتابه (إعادة البناء في الفلسفة) إلى التفاؤل حول مصير الإنسانية، فالإنسان يمتلك من القدرات والإمكانات التي تجعله قادراً على تجاوز أزمته الكبرى، وبذلك يمكن القول أن نهاية الحرب العالمية الثانية تؤشر إلى «بداية تطورات جديدة في الأنثروبولوجيا»[1]

في ظل هذه الظروف التي مرت على الشعوب، وعدم قدرة الكنيسة في أوروبا على تمكين دور الإنسان بوصفه يمتلك قدرات يستطيع من خلالها الخروج من أزمته دون الرجوع إلى قوة خارجية، من هنا نفهم تراجع دور الدين بشكل واضح ومتزايد، ومحاولة الكنيسة رأب الصدع الذي أحدثته الثورة التكنولوجية في العالم، وبهذا الجو السائد كان للعلم الدور الكبير في تشكيل سمة القرن العشرين، مشكّلاً الدعامة الرئيسة للفكر، الأمر الذي انعكس بشكل كبير على الدراسات الأنثروبولوجية التي بدأت بتحديد موضوعها ومنهجها وأهدافها لتكون أكثر مواكبة لتطور العلم، وهذا الأمر تمت مواكبته بإحداث مراكز أكاديمية للدراسات الأنثروبولوجية، ففي الثلاثينيات من القرن العشرين مثلاً كان المركز موجوداً في بريطانيا ضمن كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ولكن فيما بعد بدأت تتوالى عمليات إنشاء المراكز البحثية إن كان في جامعة كولومبيا، ومن ثم في جامعة بيركلي (كاليفورنيا حالياً)، ثم شيكاغو، وهكذا بدأ انتشار المراكز الأكاديمية والتخصصات البحثية تنتشر بقوة، وبذلك نستطيع القول أن الجهود العلمية والفلسفية التي بذلت، قد جعلت من موضوع الأنثروبولوجيا أكثر تبلوراً بحيث أصبح بالإمكان التحدث عن علم قائم بذاته له منهجه المحدد وأهدافه الخاصة، وهذا الأمر أدى إلى استقلاله عن الفلسفات النظرية واقترابه أكثر من العلوم الطبيعية، فموضوعه هو الإنسان عامةً، ويهدف إلى فهم أو محاولة فهم ذلك الكائن من جميع نواحيه العضوية والثقافية والحضارية والاجتماعية، ولذلك، فالأنثروبولوجيا متداخلة أو تقع على التخوم بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية

1. بيلتو، بيرتي ج، 2010م ـــ دراسة الأنثروبولوجيا، ص53

وغايتها فهم ووضع صورة واضحة عن الإنسان من كل أبعاده، وهنا لا بد لنا من ذكر أهم علماء الأنثروبولوجيا، ومنهم ميشيل ليرس(1901- 1990)، وروجر كالوس(1913-1978)، ونذكر أيضاً أهم طلاب فرانز بواس وهما روث بندكت(1887-1948)، وصديقتها مارغريت ميد(1901-1978)، وكان لمارغريت ميد الدور الكبير بعد استاذها في عملية انشاء التخصص البحثي، حيث شغلت مقعده بعد وفاته، وكان لديها مراكز بحثية متعددة في نيويورك*.

إن بدء أفول شمس الآباء المؤسسين للأنثروبولوجيا، والنتائج التي آل إليها الوضع العام بعد انتهاء الحرب من تغييرات سياسية واقتصادية واجتماعية، وما عقب ذلك من حركات تحرر وطني وانحسار قوة الاستعمار ـ بالمعنى العسكري ـ أدى إلى نشوء مشكلات جديدة، فكان لزاماً على العلوم الاجتماعية محاولة فهم الواقع الجديد، وضمن هذه المتغيرات كان لا بد للأنثروبولوجيا من أن تعيد بناء مفاهيمها وأدواتها، وهنا ظهرت في الأنثروبولوجيا حركة نقدية شملت كل المراكز والهيئات البحثية في أوروبا وأمريكا، وقد تجلت هذه الحركة بولادة جيل جديد من الأنثروبولوجيين، الذين أخذوا على عاتقهم مهمة المراجعة والتجديد للتراث الأنثروبولوجي، ونفض غبار كل ما كان متعلقاً بالحالة الاستعمارية، مما أدى إلى إعادة صياغة إشكالية الأنثروبولوجيا لتكون متلائمة مع عالم ما بعد الحداثة، وهذا ما شهدناه على مدى سبعينيات القرن العشرين، تأسيساً لرؤى جديدة تتسم بالنقد الذاتي لهذا التراث الهائل، وتقديم حلول مناسبة لإنسان ما بعد الحرب، وحل المشكلات التي يعانيها إنسان النصف الثاني من القرن العشرين، وربما الاقتراب أكثر لما سماه سارتر بمفهوم الالتزام والمسؤولية.

* أنظر إريكسن، توماس، 2014م ــ تاريخ الأنثروبولوجيا، ص113 وما بعدها

11. نتائج البحث:

- إن الأنثروبولوجيا جزء من العلوم الإنسانية؛ لأن موضوعها هو الإنسان، وهي جزء من العلوم الطبيعية، لأنها تدرس الإنسان بوصفه كائناً عضوياً.

- إن كل مرحلة من مراحل نشوء العلم تشكل جزءً لا يمكن فصله عن الكل، فكما رأينا لولا تاريخ الأنثروبولوجيا لما وصلنا إلى مرحلة استقلال العلم ونضوجه، ومرحلة النقد التي وجهها فيما بعد الأنثروبولوجيين الجدد لمجمل التراث والمنهج الذي كان سائداً، والذي ابتعد في مراحل متعددة عن خدمة موضوعه الأساس ألا وهو الإنسان.

- تهدف الأنثروبولوجيا إلى محاولة فهم الإنسان عن طريق دراسة مجموعة من الميادين العلمية، التي قد تكون مستقلة، إلا أنها قد تكون متصلة ببعضها، وفي هذا الصدد يمكن القول أن الأنثروبولوجيا كي تحقق هدفها وجب عليها أن تعرف كيف تكون على تخوم العلوم، فتأخذ من كل علم ما يفيدها لخدمة هذا الكائن بوصفه إنساناً، ومنهجها هو المنهج التركيبي المقارن الذي يعتمد على مجموعة من البيانات الميدانية والملاحظات والمشاهدات، ومقارنتها، لتشكيل صورة واضحة وفهم حقيقي، للعينات المستهدفة.

- لا يمكن الفصل بين نضوج الأنثروبولوجيا وبين متطلبات الاستعمار الحديث، فلولا الأنثروبولوجيا لما استطاع الاستعمار أن يحكم قبضته على الشعوب المستعمرة، ولولا الرحلات المسماة بالتبشيرية والرحلات الاستكشافية، لما فهم القادة مزاج وثقافة ومقدرات الشعوب المستهدفة لتكون بمثابة أرض الاختبار وسوق تصريف المنتجات، ونهب الثروات، ولذلك يمكننا أن نقول إن الأنثروبولوجيا بعد

منتصف القرن التاسع عشر كانت الذراع العلمية والتمهيدية والفكرية لسلطة الاستعمار.

- إن الاستشراق الذي نهض برعاية الاستعمار الغربي، كان جزءً من الدراسات الأنثروبولوجية المتجهة نحو الشرق.

12. المراجع المستخدمة:

12.1. المصادر والمراجع العربيّة:

1. أرسطو، 1977م ــ أجزاء الحيوان، ترجمة يوحنا بن البطريق، تحقيق عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات ــ الكويت، 279 صفحة
2. إريكسن، توماس، 2014م ــ تاريخ الأنثروبولوجيا، ترجمة عبده الريس، المركز القومي للترجمة ــ القاهرة، 327 صفحة
3. ابن خلدون، 2004م ــ مقدمة ابن خلدون، ج1، طبعة1، تحقيق عبد الله الدرويش، دار يعرب ــ دمشق. 569 صفحة
4. ابن خلدون، 1978م ــ من مقدمة ابن خلدون، تحقيق سهيل عثمان ومحمد درويش، منشورات وزارة الثقافة ــ دمشق.406 صفحة
5. بيلتو، بيرتي ج، 2010م ـ دراسة الأنثروبولوجيا، ترجمة كاظم سعد الدين، ضمن سلسلة كتب عالم الحكمة، بيت الحكمة العراقي ـ بغداد. 168صفحة.
6. الشماس، عيسى، 2004م ــ مدخل إلى علم الإنسان، منشورات اتحاد الكتاب العرب ــ دمشق. 190 صفحة.
7. ديركس، نيكوس، 2022م ــ إدوارد سعيد والأنثروبولوجيا، ترجمة وسيم سيفو، مجلة جسور ثقافية ـ دمشق، العدد 27، 171–188
8. روبرتس، جينيفر تي، 2014م ــ هيرودوت مقدمة قصيرة جداً، ترجمة خالد علي، مؤسسة هنداوي ــ المملكة المتحدة. 122 صفحة.
9. علي، حسان، 2021م ـ الميتافيزيقا بين كانط وهيدغر، رسالة دكتوراه، جامعة تشرين ـ اللاذقية. 190 صفحة

10. كنت، إمانويل، د.ت ـ نقد العقل المحض، ترجمة موسى وهبي، مركز الإنماء القومي ـ بيروت. 415 صفحة.

11. لالاند، أندريه، 2001م ـ موسوعة لالاند الفلسفية، مج1، ط2، تعريب خليل خليل، منشورات عويدات ـ بيروت. 1678 صفحة

12. هولتكرانس، إيكه، 1972م ـ قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور، ط1، ترجمة محمد الجوهري وحسن الشامي، دار المعارف ـ القاهرة. 460 صفحة

12.2. المراجع الأجنبيّة:

1. KANT, IMMANUEL, 1974 -Anthropology from a pragmatic point of view, Trans: Mary J. Gregor, Martinus Nijhoff, The Hague- Netherlands, 209 p

12.3. Sources and References:(In Arabic)

1. ARISTOTLE, 1977- Animal Parts, trans: John ibn al-Patryq, achievement by Abd al-Rahman Badawi, Publications Agency- Kuwait, 279 pages

2. ALSHMAS, ISSA, 2004 - Introduction to Anthropology, Publications of the Arab Writers Union - Damascus. 190 pages.

3. BILTO, BERTIE J., 2010- Study of Anthropology, trans: Kazim Saad al-Din, part of the book series The World of Wisdom, Iraqi House of Wisdom Baghdad. 168 pages.

4. DIRKES, NIKOS, 2022 - Edward Said and Anthropology, trans: Wassim Sevo, Cultural Jusour Magazine- Damascus, Issue 27, 171-188

5. ERIKSEN, THOMAS, 2014 - History of Anthropology, trans: Abdo Al Rayes, The National Center for Translation - Cairo, 327 pages

6. HULTKRANTZ, AKE, 1972- Dictionary of Ethnology and Folklore Terms, 1st ed, trans: Muhammad Al-Gawhari and Hassan Al-Shami, Dar Al-Maaref - Cairo. 460 pages

7. IBN KHALDOUN, 2004- Ibn Khaldoun's Introduction, vol1, ed1, achievement by Abdullah al-Darwish, Dar Yarub- Damascus. 569 pages

8. IBN KHALDOUN, 1978- from Ibn Khaldoun's Introduction, achievement by Suhail Othman and Muhammad Darwish, Publications of the Ministry of Culture- Damascus.406 pages

9. ALI, HASSAN, 2021-Th Metaphysics Between Kant and Heidegger, PhD, Tishreen University- Latakia. 190 pages.

10. KENT, EMMANUEL, Without Date. Critique of Pure Reason, trans: Moussa Wehbe, Center for National Development- Beirut. 415 pages.

11. LALAND, ANDRE,2001-Laland Philosophical Encyclopedia, Vol1, 2st ed, Arabization of Khalil Khalil, Oweidat Publications - Beirut. 1678 pages

12. ROBERTS, JENNIFER T, 2014- Herodotus A very short introduction, trans: Khalid Ali, Hindawi Foundation- United Kingdom. 122 pages.